العربية، هذه الأمانة...

لقد كان خبراً جميلاً يُشكر عليه أصحاب قرار أن تعود جامعة قطر إلى اعتماد اللغة العربية في معظم تخصصاتها، وإن كان ما يزال ثمة مجالٍ لتعريب المزيد منها، فاللغة العربية ليست عاجزةً ولم تكن عاجزةً قط، بل إنساننا المعاصر هو الكسول الذي يفضل التأتأة بلغةٍ أجنبية أثناء تدريس العلوم على أن يترجمها بصبرٍ ورويّة ويستوعبها فينقلها للاخرين فيما بعد بشكلٍ أفضل.. يقول كرونين الكاتب الإيرلندي في كتابه الترجمة والعولمة: "نصف الكرة الأرضية أصبح يتكلم الإنجليزية، والنصف الآخر يحاول تكلمها." ومع غطرسة هذه العبارة إلا أنها صحيحةٌ مائة في المائة.. فجزؤنا من هذا النصف أصبح لا يحاول أن يتكلمها فحسب بل وأن يتبنى كل ثقافة أهلها.. فحقاً كما يقول هذا الكاتب أيضاً: "لقد فتحت الإنجليزية العالم!"

كان من الممكن أن تندثر اللغة العربية، الفصحى على الأقل، منذ قرون لولا الإسلام الذي جعل لهذه البقعة من الأرض وزناً عندما دخله الناس أفواجاً وحرصوا على استقاء علوم الدين من علماء العرب ونقل علومهم إلى العربية التي كانت في نظرهم لغةً شامخة إذ نزلت بها آخر رسالةٍ سماوية. وما زال بعض المسلمين الآسيويين يرفعون أيَّ ورقةٍ يجدون عليها كتابة عربية من على الأرض إذا ما وجودها ملقاة- بغض النظر عن فحوى ما كتب- إجلالاً للغة القرآن..

إن تاريخ العربية طويلٌ حافل.. ترى فيه رجالاً يشدون الرحال إلى بلاد العرب لتعلم لغة الإسلام وعلومه على أيدي علمائها، وترى محاربين ينطلقون منها مجاهدين لفتح المزيد من البلاد لنشر هذا الدين العظيم، الذي يأتي دائماً مقترناً بالعربية.. ما أكثر من مات في الطريق وفي الجهاد.. وما أكثر من عانى إلى أن وصلت العربية إلى مصاف اللغات العالمية الأكثر أهمية.. فأصبحت إحدى ست لغات معتمدة في هيئة الأمم المتحدة من بين آلاف اللغات..

ولكن هل سنحافظ على هذا المكسب؟ لقد جاءت هذه الحقبة من الزمن لتقوِّض جهود الأجداد، ولتحصر العربية في نطاقٍ محدودٍ لا يزداد على مرَّ الأيام إلا ضآلة،

وفصلتها عن أفرع العلوم المختلفة، هي التي لم تضق ذرعاً بأي علم مر عليها عندما كان العلماء علماء، والمترجمون مترجمون..

واستمر قمع العربية. ففي أجزاء من بلاد المغرب العربي أصبحت الكتب تنشر إما بالفرنسية أو بحروفها، أي تكتب النصوص عربية اللغة لاتينية الأحرف. وتزامن مع هذا، وربما بدأ قبله نداء بعض "المفكرين" والأدباء منذ القرن المنصرم إلى نبذ الفصحى بحجة أن العامية أسلس، ولا أظن أنهم نادوا بنبذها إلا لارتباطها بالقرآن، فكيف تموت لغات الكتب السماوية الأخرى الأصلية وتبقى لغة الإسلام حية؟ واعتمد بعض الشعراء اللهجة العامية في الشعر كأساسٍ لا كخيار ودعا إلى ذلك، حتى أن أحدهم أبدى ندمه على السنين التي "قيّد" فيها نفسه وفكره بالفصحى، مع أنه عندما كتب بالعامية، لم تكن قصائده العامية بأجمل أو أكثر تعبيراً من قصائده بالفصحى. والآن أصبحت المدارس المستقلة تعتمد الانجليزية لتدريس المواد العلمية منذ الابتدائية، وقبل أن تؤسَّس العربية في ذهنه.

تلا ذلك أو زامنه محاولة إزاحة العربية من الواجهة من خلال وسائل الإعلام، ربما لجذب اهتمام الشباب الذين يربطون استخدام اللغات الأجنبية بالتمدن والعصرية، فأصبح للبرامج أسماء إنجليزية أو فرنسية تكتب أيضاً بأحرفهما، بما يجعلني أشيح بوجهي حرجاً من أن يراها أجنبيّ فيستغرب من قلة ثقتنا بأنفسنا، تماماً كما أفعل عندما أسمع عربياً يكلم طفله بالإنجليزية في مكانٍ عام. وما زلت أستغرب لِمَ سمح المسؤولون في المحطات الممولة خليجياً باستبدال "توقيت مكة المكرمة" إلى "توقيت KSA"، ألم يلاحظوا أن كلمة مكة قد اختفت؟

أما أسماء المجمعات السكنية والمجمعات التجارية بما فيها من أقسام ألعاب الأطفال وبقية المحال التجارية فقد أصبحت توحي بأن حضارتنا أصبحت فعلاً تحت الإبهام الإنجليزي الذي أصبح يطبع كل شيء ببصمته. كان في الأردن قانونٌ رائع ينص على منع تسمية المؤسسات والمحال التجارية بأسماء أجنبية، ولكني لست واثقة من أنه لا يزال سارياً في هذه الحقبة التي أصبح فيها التغريب تياراً جارفاً من الصعب أن يقاوم.

وهكذا نرى أنه بقدر ما أخلص أجدادنا للعربية فرطنا فيها، بدليل أن أكثر المفردات العربية التي دخلت الإنجليزية دخلتها في القرون ما بعد الوسطى، أما المفردات الإنجليزية التي دخلت إلى العربية فكلها دخلت في عصرنا..

ومع ذلك فالتراجع عن اعتماد اختبار التوفل كشرط التحاقٍ بجامعة قطر، وتعريب بعض التخصصات الدراسية جاء كبارقة أمل. كما أنه لا زال هناك ذلك الإتجاه اللطيف في قطر لتسمية بعض المؤسسات بأسماء عربية خليجية من أجل إحياء التراث الشعبي مثل "الميرة" و"كروة"، فليتنا نعتمد العربية وخاصة الفصحى، الأكثر استحقاقاً للبقاء، لمؤسساتٍ أكثر رقيّاً مثل هذا الصرح الجميل المسمى أسباير والمجمعات التجارية والسكنية. أعلم أن ذلك قد يكون في نظر بعض الناس بمثابة المغامرة بنسبةٍ ما من إقبال الناس الذين ينجذب كثيرٌ منهم بشكلٍ أكبر للمحال المزدانة بأسماءٍ أجنبية كتبت بأحرف لاتينيةٍ رشيقة، ولكن ألا يمكننا التضحية بشيءٍ ما من أجل مبدأ؟ خاصة وأن كلّ ذلك قد يختلف إذا اعتاد الشباب على رؤية التسميات العربية تطلق على المزيد من الأماكن الراقية والبرامج التلفزيونية والشبكية الحديثة والمجمعات التجارية الفخمة..

ولنسأل أنفسنا أخيراً هذا السؤال: هل نحن فئة بشرية تعتز بنفسها وتراثها ومكتبتها التي تمتد أصولها إلى أكثر من أربعة عشر قرناً، ويهمها أن تؤدي الأمانة التي سلمها إياها أمناء الأمة كاملةً غير منقوصة إلى أجيالها القادمة؟ إذا كانت الإجابة بنعم فلنبدأ كلٌّ فيما يخصه بتعريب أشيائنا.

دعد خليفة